ما وعدتني. فبادرت واقسمت انها ستلقاني في اليوم التالي واسرعت تعدو الى زملائها القريبين منا لتبلغهم نتيجة مسعاها وكانوا خمسة بينهم (ليلاس باستيا)محملين بضائع انكليزية محزومة وعهد الى كارمن بمهمة المراقبة ان لمحت حارساً نبهتهم بضربات من صحنيها. لكنها لم تكن بحاجة الى ذلك، واتم المهربون عملهم بوقت وجيز.

وفي اليوم التالي يممت شطر شارع القنديل فوجدت كارمن في انتظاري وعلى وجهها علائم الغضب الشديد، قالت لي بحدة:

- اني لا احب الناس الذين يطلبون لفضلهم ثمناً. في المرة الاولى اسديت لي خدمة جليلة غير مفكر بجر مغنم منها. اما امس، فقد ساومتني.

ولست ادري ما الذي جعلني انتظرك اليوم. اني لم اعد اكن لك شيئاً من الود. فاغرب عن وجهي، واليك الدينار ثمناً لاتعابك.

ما رأيتني، الا وأنا اهم بقذف النقود بوجهها. استنجدت بكل قواي لكظم ما بي والسيطرة على اعصابي خشية انهيالي عليها بالضرب. وبعد جدال دام اكثر من ساعة خرجت وانا اكاد انشق غيظاً وقهراً. همت على وجهي كالمجنون وقادتني رجلاي الى كنيسة فولجتها واخترت اظلم الزوايا فجلست. جثوت على ركبتي واجهشت بالبكاء وفجأة سمعتُ قائلاً:

- دموع «داركون Dragoon[٤٤] بودي لو صنعت منها جرعة حب.

رفعت نظري، فرأيت كارمن. ابتدرتني قائلة:

- اذن، مازلت تحبني يا ابن بلدي. من الواجب ان اشعر بحب لك مع كل هذا. منذ غادرتني وانا لا ادري ما بي. هيا اذن، انا التي اطلب منك المجيء هذه المرة الى شارع القنديل.

وهكذا رجعنا معاً. كانت طباع «كارمن» شبيهة بمناخ بلادنا، ما ان تؤذن العاصفة بالهبوب حتى تلمح الشمس مشرقة رائعة. وعدتني ان تجتمع بي عند (دوروثيا) مرة ثالثة، فاخلفت الموعد. واكدت لي هذه العجوز أن كارمن رحلت الى البرتغال لتدبير صفقات تهريب. ولقد علمتني التجربة بألا اركن الى هذه المزاعم. فصرت ابحث عنها في كل مكان، كنت امر بشارع القنديل عشرين مرة في اليوم عبثاً، حتى كان مساء احد الايام وانا عند دروثيا التي كنت قد استملتها الى صفي ببعض اقداح من الانيسي. واذا بكارمن مقبلة يتبعها ضابط ملازم صغير السن من كتيبتنا. صاحت بي بالباسكية: «اخرج من هنا» فوقفت مصعوقاً والحقد ينهش قلبي فصاح بي الضابط:

- ماذا تفعل هنا؟ اخرج، اخرج من هذا المكان.

٤٤- هذه الكلمة تحريف اللفظة Dragon وهي اسم الفارس الدركي.

لم استطع زحزحة نفسي عن الموضع الذي تسمرت فيه، حتى لكأنني اصبت بالشلل. ولما رأى الضابط الواقف سكون حركتي امسكني من ياقتي وصكني صكاً عنيفاً، فقلت له شيئاً، فانتضى سيفه وحذوت حذوه. امسكت العجوز بساعدي فاصابني خصمي بجرح في جبهتي ما زالت ندبته ظاهرة. رجعت القهقرى خطوة، وبوكزة واحدة من كوعي ارسلت العجوز الى الارض تتدحرج. لحق بي الضابط فسددت اليه ذبابة سيفي، فتلقاه بصدره. اطفأت كارمن المسرجة واشارت على دوروثيا (بلغتها) ان تنجو بجلدها. اما انا ففزعت الى الشارع وصرت اعدو هائماً على وجهي وخلت امرؤاً يتعقبني ولما عاد اليّ رشدي، وجدت لدهشتي - كارمن تسير في اعقابي ولم تفارقني لحظة، قالت لي:

- قبحت ايها الكنار الاحمق الغبي، فكل ما تعرف هو التورط في مشاكل. اما قلت لك سأكون شؤماً عليك؟ مع هذا، فلكل داء دواء. ومن كانت له حبيبة من (الرومان الفلمنگ)[٤٥] فلا خطر عليه. لنبدأ الان بربط جبينك بهذا المنديل، ثم اعطني حزامك وانتظرني في هذا الزقاق،

٤٥- Flamenco de Roma وهو تعبير عامي الغجر. و (روما) هنا لا يقصد بها (المدينة الخالدة) بل هي مشتقة من كلمة رومي (Romi) او الزوجين كما يطلق الغجر على انفسهم. والذين شوهد منهم في اسپانيا اول الامر يغلب على الظن انهم جاؤوا من الاراضي المنخفضة، ومن هنا جاء لفظ (الفلمنگ).

سأعود اليك بعد دقيقتين.

قالت هذا واختفت، وما هي لحظة حتى اقبلت علي بطليسان مخطط، لا ادري من اين جاءت به. امرتني بخلع بذلتي العسكرية فخلعتها والبستني الطليسان فوق الصدار. فصرت اشبه شيء بفلاحي بلنسية القادمين الى اشبيلية لبيع «الشوفاس»[٤٦] ثم اقتادتني الى دار شبيهة بدار دوروثيا يقع في مدخل حارة ضيقة، وهناك غسلت جرحي وضمدته بمعونة غجرية بخير ما يضمده الجراحي، وناولتني جرعة من دواء غريب واضجعتاني على فراش، وسرعان ما ادركني النوم وارجح انهما وضعتا عقاراً منوماً لايعرفه غيرهن.

لذلك بقيت نائماً حتى ضحى اليوم التالي، استيقظت وانا اشعر بصداع أليم وحمى خفيفة. ومر وقت فعدت افكر في المأساة المخيفة التي اسهمت بدور فيها مساء امس. بعد ان ضمدت كارمن ورفيقتها جرحي افترشتا الارض واخذتا تتهامسان بلغتهما عن حالتي الصحية كما اظن. ثم انهما بشرتاني بقرب الشفاء. وصارحتاني بضرورة مغادرتي اشبيلية في الحال. فلو قبض علي لاعدموني الحياة رمياً بالرصاص لا محالة. وقالت:

– ان الملك ياطفلي، لم يعد له شأن في تموينك بالارز والسمك المقدد[٤٧] وعليك الان ان تعمل، ان تفكر في مهنة ترتزق

٤٦– هو نبات اشبه شيء بجذور (عروق) السوس يصنع منها شراب لذيذ في اسبانيا.

٤٧– هي وجبة غذاء الجندي الاسباني العادية على ما يبدو.(م)

آه أنت غيور؟ وهذا ما يزيد حالك سوءاً

منها. انت مأفون بحيث لايمكن ان تصير نشالاً على انك قوي البنية شديد العضل لكنك بحاجة الى بعض الجرأة. الا شق لك طريقاً الى الساحل، كن مهرباً. او لم اعدك بحبل المشنقة؟ انه خير من الرمي بالرصاص ولاريب! لو كنت تعرف كيف تتدبر امرك، فستعيش عيشة الامراء وحسبك ان تظل بعيداً عن الكتائب الجوالة وخفر الساحل.

بهذا الاسلوب البسيط الشيق، رسمت لي الفتاة الشيطانة حياة المستقبل وان شئت الحقيقة: ألسبيل الوحيدة التي لاخيار لي فيها بعد ان ارتكبت جريمة عقابها الموت. ولست بحاجة الى ان تعلم انها قررت مصيري ببساطة وبدون مشقة تذكر. صرت ازين لنفسي ربط مصيري ووجودي بمصيرها ووجودها والسير معها في خضم الحياة المحفوف بالمكاره والخطوب.

وكان اعتقادي منذ ذلك الحين، انها اخذت تحبني. لقد سمعت كثيراً عن عصبة من المهربين تجوب انحاء اندلوسيا على صهوات الخيل وافرادها مدججون بالسلاح، وقد اردفوا خليلاتهم وراءهم. فشرعت اتخيلني بجوادي صاعداً النجاد، هابطاً الوهاد مردفاً خلفي هذه الغجرية الفاتنة! صارحتها بخيالاتي هذه فقهقهت حتى امسكت بخاصرتيها، وقالت بألا شيء اروع من المبيت ليلاً في العراء حيث يخلو الزوج بزوجة تحت خيمة هي عبارة عن بساط صغير يقوم على اوتاد ثلاثة. فاجبتها:

– لن تطمئن نفسي الا حين اتخذ الجبال مقراً دائماً لنا حيث

لايوجد ضابط تشركينه بحبي.

- آه، انت غيور؟ وهذا ما يزيد حالك سوأ، كيف كنت بمثل هذا السخف، الا ترى اني احبك ما دمت لا اطلب منك مالا؟

كنت اشعر بدافع ملح الى خنقها عندما تتحدث بهذا الاسلوب، ولن اطيل عليك ياسيدي، فقد افلحت كارمن في ايجاد ثياب مدنية لي غادرت بها اشبيلية آمناً وسرت قاصداً (خيريز Jerez) برسالة من (باستيا) الى خمار اعتاد المهربون الاجتماع في داره، وهناك تعرفت الى اولئك السادة وزعيمهم (دانكيير) فضمني الى عصابته ورحلنا الى (كاوسين) حيث اجتمعت بكارمن (وكنا قد تواعدنا اللقاء هناك) كانت جاسوسة للعصابة وجاسوسة لايشق لها غبار. عادت من جبل طارق وشيكا بعد ان اتفقت مع ربان سفينة على انزال بضائع انكليزية تتسلمها منه في الساحل.

انتظرنا البضائع في (اسطفونه) ثم انتقلنا وخبأنا قسماً منها في الجبال وحملنا الباقي الى (رنده) وقد سبقتنا اليها كارمن بعد ان عينت لنا الوقت الذي يمكننا الدخول اليها آمنين على بضاعتنا. وحالفنا التوفيق في هذه العملية وغيرها، واستمرت حياة التهريب وفضلتها على الجندية، فقدمت لكارمن الهدايا. المال في جيبي والحبيب بقربي! وهكذا لم اشعر بتبكيت الضمير ابداً، لان حكة السرور لاتحك قط كما يقول المثل الغجري. لقد

كنا نقابل بالتجلة والحفاوة انى حللنا، واحسن زملائي معاملتي بل اظهروا لي بعض الاحترام لكوني صرعت غريمي! وليس بينهم من يستطيع الفخر بمثل هذه المأثرة. اما اسعد اللحظات في حياتي تلك، فهي كثرة اجتماعاتي بكارمن التي كانت تظهر لي انذاك اعظم الود والاعزاز. على انها لم تسمح لي باظهار حبنا امام الزملاء ابداً. وحملتني على الوعد بالكتمان. كنت شديد الضعف امام هذه الانسانة فصارت تلعب بي لعباً وصرت اطوع لها من البنان في كل نزواتها. ومما اغراني بهذا - انها اخذت تظهر -ربما لاول مرة في حياتها- بمظهر المرأة المخلصة الرزينة. وكنت من السذاجة بحيث اعتقدت انها اصلحت سلوكها واستقامت. لن اكتمك ان عصابتنا المؤلفة من ثمانية رجال او عشرة لم تكن تجتمع كلها الا في القليل النادر او عندما تحزبنا الامور، وفيما عدا ذلك كنا متفرقين لا نسير الا زوجاً زوجاً او ثلاثاً ثلاثا في سائر المدن والقرى. وكان لكل منا عمل معروف ظاهر. فهذا تاجر قصدير وذاك تاجر خيل، وانا بائع اقمشة جوال. لكني لم اكن ابدو كثيراً في المدن الكبيرة بسبب الجريمة التي ارتكبتها في اشبيلية. وفي يوم ما، او قل في احدى الليالي، كان المقرر ان نجتمع في ڤيخير Vejerوكنت انا ودانكير اسبق القادمين. وجدت زميلي عظيم البهجة فسألته عن السبب فاجاب:

- سينضم الينا زميل آخر. ان كارمن انجزت عملاً من اعمالها الخارقة. لقد دبرت مؤخراً حيلة فانقذت «رومها Romi»

الذي كان سجيناً في قلعة «طارفة Tarifa».

(اصبحت وانا افهم طرفاً من لغة الغجر، وهي اللغة التي يتفاهم بها زملائي) فما سمعت كلمة (رومي) حتى سرت في بدني قشعريرة، فسألت الزعيم: «ماذا قلت؟ زوجها؟ افمتزوجة هي اذن؟»

- بالتاكيد، انها زوجة (كارسيا) الاعور الغجري. انه سريع الحركة مثلها. كان المسكين محكوماً بالاشغال الشاقة. ففتنت كارمن آمر القلعة واسرته، وظفرت بحرية زوجها. آه تلك الفتاة تساوي ثقلها ذهباً ظلت سنتين تدبّر الدسائس والحيل لفراره ففشلت، حتى ابدلت الحكومة القائد بآخر جديد فتوصلت الى تفاهم سريع معه كما يبدو.

اني اترك لك الحرية لتقدر مبلغ الغبطة التي شاعت في نفسي لدن سمعت هذا النبأ!

بعد زمن قصير اجتمعت بكارسيا الاعور وقد جاء بصحبة كارمن.

كان اقبح غول قذفت به بوهيميا، اسود البشرة واشد منها سواداً نفسه السوداء. كان اخبث او انذل وحش رأته عيني. ونادته بزوجها امامي. آه لو رأيت نظراتها الحادة التي كانت ترشقني بها، آه لو رأيت تغضن وجهها وتقززها حينما كان «گارسيا» بولينا ظهره. كنت شديد الحنق، فلم اوجه اليها كلمة واحدة طول الليل. وفي صبيحة اليوم التالي حزمنا البضاعة

ترجلت واخذت تتهامس هي ودانكير و گارسيا